بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عدُّون كما عرفته

أحمد بن عمر أوبكة

الحمد لله الذي جعل العلماء المخلصين ورثة الأنبياء، وآتاهم من فضله ما جعلهم به أقوياء، سبحانه آتاهم صبرا وحكمة وتحملا للمكاره، واحتسابا لما عند ربهم من خير وثواب، وصلوات الله على جميع الرسل لاسيما أولوا العزم منهم، فصلوات الله وسلامه عليهم ما تعاقب الملوان ، وتناوب النيران، ورضي الله عن صحابة ابن عبد الله المصطفين الأخيار، الذين سمت بهم أخلاقهم وطباعهم، فخلدوا أكرم وأبرك الآثار، ورضي الله عمن جاءوا من بعدهم من العلماء الذين استنوا بسنتهم، واقتفوا آثارهم، وواصلوا المسيرة، فأوصلوا شريعة الله وأدوها بكل أمانة، وحافظوا على التراث الثمين ووقفوا عليه بأكمل صيانة.

أيها الحاضرون الأفاضل والإخوة الأكرام الذين عرفوا حق من له الحق فحضروا ليكرموا شخصه الذي هو عند الله كريم، لكنهم حضروا وفاء ومحبة وبكل صدق وولاء، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد، ماذا عساني أقول– وأنا عيي اللسان– في رجل عزت في الرجال رجولته، وبطل تطاولت على جل البطولات بطولته؟ .وفي شهم أعجز التحديات التي حاولت أن تعجزه رهقا فأناخها، واتخذها جسرا لغاياته ومعبرا لمآ ربه،وأوهن المثبطات التي حاولت أن تقعده فاتخذ منها سلما لنيل مطالبه، ماذا عساني أقول في رجل يغمره الإيمان، ويحركه الإخلاص، وهو الذي جعل الوفاء ملاك أمره، ورضى ربه مبتغى عمله، والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين شعاره في كل من حركاته وسكناته، وجعل من حبه الخالص مظلة تنتظم الأطهار والصالحين الأبرار، نعم– وأيم الله– إنه الرجل الذي رحب قلبه لأبنائه كما رحب

لإخوانه الأقربين والأبعدين، أب عطوف يعامل أبنائه الروحيين كما يعامل أولاده الصلبيين. إنه البطل الفذ الذي نذر كاهله لرب العالمين ليحمل عليه أعباء أمته، ومنحه ليكون مصعدا للأجيال التي حققت ما كان يصبو إليه من آمال. إنه الرجل الدؤوب دأب الشمس والقمر، وهو الذي – إن جئنا نصف الرجال– تصدق عليه الأوصاف التي لا ينفك عنها ولا تنفك عنه، ورع–مخلص–مجاهد–مجتهد–مكافح– مقاوم– مقدام– خير– ثابت– متواضع–وأضف إليها ما خطر لك من السجايا الحميدة من غير تردد إنه الذي آلى على نفسه وعاهد ربه قائلا:لا أزال أعمل إلى أن يناديني ربي إلى جواره؛ فرحمة الله عليك يا من برّ ووفى وصدق.

إنه الرجل الذي رشحته العناية الإلهية بأن أضفت عليه تلكم الصفات العالية التي أهلته لأن يتبوأ من كل قلب مبوأ صدق واحترام وتقدير، وأهلته ليكون ردءا لزعيم الأمة الشيخ بيوض –رحمه الله– ويكون له الذراع الأيمن في حركته، وكبريات قضاياه العلمية والإصلاحية وأداة صالحة– إن صح هذا التعبير– لتطورها.

عنايته بالتعليم الصالح السليم

إنه الرجل الذي جعل لحياته وأعماله ثلاثيّا قويّا. قوامه العلم والإيمان والإخلاص، من أجل ذلك ضحى التضحيات الجسام بكل ما تملكه يمينه في تثقيف أبناء الأمة، وتلقينهم ما عنده من العلم في جد واجتهاد ونكران للذات عز مثيله فكانت المعلومات التي لقن أبناءه الطلبة طلبة المعهد الحياة خير رصيد لهم في درجات مستواياهم ينتفعون به وينفعون حسب قدرات كل منهم يصدق عليها قول ربنا تعالى:" فسالت أودية بقدرها". وليس اعتناؤه واجتهاده مقصورين على طلبة معهد الحياة فحسب بل شمل كذلك تلاميذ المدارس الابتدائية المنبثة هنا وهناك في القطر الجزائري التي كانت تنضوي تحت نظامه حيث كان يشرفها بتفتيشه السنوي وبحيث كان لا يبرح تفتيشها إلا ونفح أبناءها ومعلميها بتوجيهاته التي تترك كل دورة تفتيش ما تتركه من تحفز للعمل وتدرج من حسن إلى أحسن وبما يطعم كلا بشحنات الإخلاص والنشاط.

هذا وأعود إلى "معهد الشباب" الذي هو اليوم يسمى "معهد الحياة" الذي جعل منه معهدا ربانيا ذا ورشات روحانية إذ لا يعلم من أجل العلم فحسب بل يثقف نتؤات الشباب، ويصقل مشاعرهم، ويعدل أفكارهم، ويهذب أخلاقهم، ويؤهلهم لخوض معترك الحياة.

وأقص عليكم قصة طريفة فأرجو إن تستسيغوها وتقبلوها مني بصدور رحبة: كان رحمة الله جالسا إلى أبنائه طلبة المعهد في صالة المحاضرات في أول لقاء بهم لافتتاح السنة الدراسية، وكان ساعتها يلقن لهم درسا يحرضهم فيه على الجد والاجتهاد والمثابرة في التحصيل والتخلق بأخلاق الإسلام– كعادته في كل مناسبة– وللأسف قل من ينتهج هذا المنهج في التعليم– وبينما هو منهمك في التبيان والإقناع إذ مر معتوه معروف في البلدة– ممن لا تخلو من أمثاله مدينة أو قرية– وكانت بعض نوافذ القاعة مفتوحة إلى الشارع– مر المعتوه وصاح قائلا هكذا: إيهْ أذرعْ أذرع ألشيخ عدون أولا دحد اشييني أو ليجيء دامن – أي قل ما شئت ولا أحد يعترضك ويقول لك إنك مخطئ.

فقوله هذا بطبيعة الحال من تخريف المعتوهين ومن تهويشهم و تشويشهم لكنه الحق بعينه وقديما قيل: خذوا الحكمة من أفواه المجانين، إذ كان الذي يقوله الشيخ هو عين الصواب وهو الأصل في طلب العلم وكله من المحسوس الذي قال فيه الشيخ أبو اليقظان رحمه الله في أنشودته الخالدة:

أي شخص ينكر المحـ سوس أو يبدي الملامة

غير غمر مسه الجن فأضحى كالنعامة

ولا شك أن تلك التوجيهات لا تلبث أن تكمن في نفوس الطلبة وتتمكن في قلوبهم حتى تتبلور في مستقبل حياتهم سلوكات وأنماطا من العمل الصالح الذي يتحقق به الأمل ويبعث على الارتياح و الاطمئنان والتفاؤل وهو ما نراه ونشاهده ونلمسه بلا إجحاف ولا مواربة.

إخلاصه

إذا كان الإخلاص مستورا ومن أفعال القلوب ، فإخلاصه نهر لا ينضب ولا يختفي إذ أن أعماله تسقي الحياة فتنعشها كما ينعش النبت الحيا، فلا تلبث أن تثبت جذورها وتتمكن من الصلاحية أصولها فتورق وتزهر ثم تؤتي أكلها جنيا طيبا بإذن ربها، وقل مثل ذلك عن أقواله حيث يمازج إخلاصه إرشاداته ونصائحه فتنطلق نيرة مطواعة إلى قلوب سامعيه فنهضها وتحرك عزائمها وهممها لذلك فإن سألك سائل عن هويته فقل هويته الإيمان وإن سألك عن انتمائه فقل ينتمي إلى المخلصين الذين نعتهم ربنا عز وجل بقوله:" وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين".(البينة – 5)

جعل –رحمة الله عليه– من إيمانه حافزا يحفزه إلى العمل الجاد الصالح، يؤمن بأن إرادة الله تقوي إرادته، وقوته سبحانه تسهل في خلده وظاهر أمره كل صعب، وعظمته تعالى تهون عليه كل أمر عظيم، لذلك جعل إخلاصه مركبا ذلولا يحقق به كل رجاء ، ويبلغ كل مأمول.

قل لي بربك لماذا أنعت رجلا إذا ذهب إلى المسجد وجدته حمامته، وإن التفت إلى مجلس القرآن رأيته يتيمة عقده، وإن خرجت إلى الميدان الكفاح في المجتمع بهرتك مواقفه ودهشت لأسديته ، و أعجبت بجديته، وإن التمسته في مجلس علم وجدته حاضرا ملازما إياه التزامه صفوف دراسته،كما أنك لو قعدت إليه في مجلس أنس ومرح تعرفت إلى أساليب المؤانسة والمرح، سبحان الله، إنه شخصية يكاد تكون متكاملة وصدق الشاعر حيث يقول:

وليس على الله بمستعبد   أن يجمع العالم في واحد

اطمئنانه وتفاؤله

وإن تعجب فعجب اطمئنانه وتفاؤله في كل حالة من أحواله النفسية وفيما يمر عليه أو يعتريه من حلو ومر، وعسر ويسر، وسعة وضيق، وشدة ورخاء فلم نره يوما– حين عاشرناه– برما أو منزعجا مما ينزعج منه ضعاف النفوس المتشائمون ولا متأففا مما يتأفف منه المتأففون،ولم نره إلا متفائلاً هادئاً مطمئناً وكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

ذلكم لأن الإيمان بربه يغمر فؤاده، وذكر ربه يحرك لسانه، بحيث ينطبق عليه قول الله عز وجلّ:" الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكرالله تطمئن القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب".(الرعد 29 – 30)

بهذه السلوكات الربانية ضرب أروع الأمثلة في الصبر والمصابرة والتحمل لمشاق الحياة حتى أفقد شعوره بالواجب شعوره بما مر عليه من شظف العيش و نكد الحياة، ودفعه حسه السامي إلى مقاصده العالية وغاياته الشريفة من غير أن يعبأ بما يقعد الواهنين، عاش منذ نعومة أظفاره– حسبما صرح هو بنفسه– يصدم ويصادم من غير أن يبالي بأي سهم يصاب، ولا من أية جهة يأتيه، يتحمل وقعه ولسان حاله يقول:

ولست أبالي إن أتتني منيتي   على أي جنب كان في الله مصرعي

عنايته بالشباب

إنه المربي الحاذق الذي عرف معنى الشباب، وحيوية الشباب، وغلاء قيمة الشباب، وعلم أن الشباب هو عصب الأمة و شريانها، وأنه أمل الأمة إن كان صالحاً وبه يشد بنيانها، فأولاه عنايته المثلى، ووضعه في مرتبته الفضلى، و أعماله ونشاطاته مع أبنائه الشباب في جمعية الشباب الثقافية ضمن معهد

الشباب "الحياة" لا تنسى، ومجلدات جريدة ومجلة الشباب هي من جملة صحفه الناصعة المشرقة التي يؤتاها من يمينه يوم يؤتى العباد كتبهم . ثم إن مجهوداته في إنماء حيوية الشباب لا في الثقافة فحسب بل حتى في الرياضة بمختلف مناهجها مجهودات لا تنكر بل هي بارزة للعيان، ومن جملة ذلك حبه للكشافة الإسلامية وعنايته بها واهتمامه بمسيرتها واستقرار شؤونها، ويشهد لذلك تكوينه للكشافة المسماة "كشافة الجنوب" والتي تصير بعد ذلك أفواج "كشافة الحياة" كان يشرف عليها ويحنو عليها إلى آخر رمق من حياته. وإليكم عينة من حماسه اللامحدود في تأطيرها وتشجيعها ؛ لقد كان في شهر جوان من عام **1948** عقدنا مخيما كشفيا في إحدى ضواحي القرارة ومكان المخيم يبعد عن القرارة بنحو خمسة كيلو مترات لبثنا فيه ثلاثة أيام، وكان يتفقدنا من حين لآخر وفي عشية اليوم الأخير من المخيم وقد زممنا حقائبنا جاءنا رحمة الله عليه ليحضر حفل الختام وبعد الانتهاء الحفل قفلنا راجعين إلى البلدة مشيا على الأقدام –طبعا– وكان نمط سيرنا العدو الريفي **au gualop** وكان رحمة الله في رفقتنا ويعدو معنا وكان عدونا على وتيرة واحدة كما بدأنا أول السير أكملناه فما فتر ولا تأفف وما بدا منه عياء ولا فشل حتى وصلنا ، ولا شك أن هذا الذي كان منه يدل على أكثر من دلالة، فهو يلقن لنا درسا عمليا في التواضع–أولا– حيث كان عمره آنذاك يربو على الأربعين عاما ونحن أحداث أعمارنا تتراوح ما بين الثمانية عشر سنة والعشرين، ثم هو أستاذ وشيخ ذو مقام في المسجد خاصة وفي المجتمع عامة ثم أراد أن يعلمنا كيفية المواصلة في الجد والرصانة في العمل، والتحلي بالصبر، والتسلح بقوة الإرادة ، والتخلي من الفتور والفشل ، والابتعاد عن التأفف ولو بعدت الغاية التي يطلبها من يسعى إليها.

رؤيته لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

لقد كان رحمة الله عليه يشيد بجمعية العلماء المسلمين فهو يعلق فيها آمالا عريضة لإصلاح الأوضاع الدينية والخلقية في الجزائر بحيث يرى رؤية واضحة وصادقة أن الأمل لإصلاح المجتمع الجزائري بواسطة جمعية العلماء أمل صادق إن سلمت النوايا وصدقت الإرادات ذلكم لأنه يعتقد الاعتقاد الجازم أن لا صلاح لأمة مسلمة بغير دينها ولا سلامة لها إلا بسلامة معتقدها وسلوكاتها وأخلاقها.

وقد قال رحمه الله عن جمعية العلماء المسلمين قولا ذهبيا صريحا ينم عن إخلاص عميق ويشع منه الأمل ، قاله في إحدى المناسبات وهو كما يلي:"جمعية العلماء موجودة ولكن أهلها ضعاف ماديا وأدبيا، والمخلصون موجودون لا أقول غير موجودين لكنهم أشخاص قليلون ، فهؤلاء الأقلية لو

تماسكوا –كما هم سائرون اليوم– لو تماسكوا وزادوا إخلاصا وجاهدوا إلى نهجهم لوجدوا أعوانا ووجدوا صوتاً مسموعاً لدى الشعب، ولا نقلبت الحياة ...إلى أن يقول: والشعب في استعداد كما استعد في وقت الإستعمار لتلقي دعوة جمعية العلماء، فهو في استعداد كذلك الآن لتلقي الإسلام على حقيقته إذا هؤلاء المسيرون ليكونوا في مستوى العلماء الربانيين .أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ".ا.هـ(1)

1) عمر إسماعيل آل الحكيم في مقابلة مع شاهد القرن الصفحة 42 – 43 بتصرف

غيرته واهتمامه بقضايا المسلمين على العموم

إن شواغله الجسمية وأعماله العظيمة لم تصرفه عن الاهتمام بأمور المسلمين ولما يجري في مواطنهم في كل بقعة من بقاع المعمورة يتطلع إلى أخبارهم ويقرأ عنهم ما تحمله الجرائد و المجلات،ولذا كان يعلق آماله في نفع أمة الإسلام عامة في كل أداة صالحة لذلك، وينشئ أبناءه الطلبة على الحماس والغيرة والعمل لرفع المحنة عن المسلمين وكان يحمل بين جنبيه وطيد الأمل في جمعية العلماء المسلمين التي كانت مشعل الهدية في الجزائر يأمل فيها نهوضاً وحماساً فوق ما هي عليه لتكرس جهودها في تعميم نفعها، ونشر ضيائها ابتداء من الجزائر نهوضا عقلانياّ متزنا في وسطية لا إفراط فيها ولا تفريط حسب قوله تعالى:" وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا".(البقرة 142)

وإلى هنا أرسي سفينة كلامي المتواضع الذي لا ولن يفي بحق شيخنا الذي أكرمنا الله بالانتماء إليه، فكلامي الذي قدمته ما هو إلا كلام مقتضب أنى يبين فضله وقدره غير أني أكل الأمر إلى الله العلي القدير الذي لا يضيع عنده أجر من أحسن عملا، أدعوه تعالى أن يجازيه بأوفر وأحسن الجزاء بقدر ما أحسن إلى دينه وبأن يجعله في زمرة الصديقين الصالحين والشهداء إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين .

أحمد بن عمر أوبكة